رأيٌ في توجيه تقديم (هارون) على (موسى) في سورة (طه)

محمود بن عبد الجليل روزن

الحمد لله الذي علَّم قرآنه، وأحكم بيانه، فلا يعتريه تناقض، ولا يقع فيه تعارضٌ، جاء على أحسن النَّظْمِ وأبلغِه، وعلى أكمل الهَدْيِ وأسبغِه، فلله الحمدُ بالإيمان، ولله الحمدُ بالقرآن. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبده المجتبى ونبيه المصطفى، وبعدُ.

فممَّا يغدو به الاستشكالُ، ويروحُ به الاحتمالُ وجهُ الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾ [الأعراف: 120-122]، وقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾ [الشعراء: 46-48] وبين قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾ [طه: 70]، إذ كيف تقدَّم ذكر موسى ﷺ في موضعين، وتقدَّم ذكر هارون ﷺ في موضع؛ مع أنَّ الكُلَّ حكايةُ قول السَّحرة في موقفٍ واحدٍ؟

وقد ذهب كثيرٌ من العلماء أنَّ هذا الترتيب إنما كان لمراعاة الفواصل، فآخّر ذكر هارون ﷺ في سورتي الأعراف والشعراء لمناسبة فواصلهما، وأخَّر ذكر موسى ﷺ في سورة طه لمناسبة فواصلها[1].

وقد يقال إنَّ العطف بالواو لا يفيد الترتيب، وإنما هو لمطلق الجمع، وحينئذٍ يجب البحث عن علَّة اختصاص سورة طه بتقديم ذكر هارون على موسى – عليهما السلام – ويكون القولُ بمراعاة الفواصل قولًا وجيهًا.

غير أننا في هذه المقالة ننحى منحًى آخر في الإجابة عن هذا الإشكال، آملين من الله ﷻ أن يجعلنا فيه الصائبين المقبولين، وأن يجنّبنا الزلل والخطل. آمين.

فنقول وبالله التوفيق: إنَّ القرآن الكريم إنما يحكي حاصل معنى ما تكلَّم به السحرة، فهم لم يتكلَّموا اللغة العربية قطعًا، وإنما كان لسانهم لسان القبط في ذلك الزمان، فالقرآن يُترجِم عن لسانهم إلى اللغة العربية.

---

[1] انظر: درة التنزيل وغرة التأويل (2/ 664)، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل (ص 326)، كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص 187)، والبرهان في علوم القرآن (3/ 234-235)، البرهان في علوم القرآن (3/ 339).

ثم إنَّ عدد السحرة كان كبيرًا ولا شكَّ؛ قال ابن كثير: «وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة، فضلاء، في فنهم غاية فجمعوا له من كل بلد، ومن كل مكان، فاجتمع منهم خلق كثير وجمٌّ غفير»[1].

كما يستفادُ ذلك من قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨﴾ [الشعراء: 36-38]، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠﴾ [طه: 60]. وأقلُّ ما ذُكر فيه عددهم أنَّهم كانوا أربعين؛ على ما فيه من ضعف ونَظَرٍ؛ نسبه ابن كثيرٍ لابن عبَّاس مضعَّفًا؛ بقوله: «ورُوي عنه أيضًا أنهم كانوا أربعين غلامًا من بني إسرائيل أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء، فيتعلموا السحر. ولهذا قالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: 73] وفي هذا نظر»[2].

قلتُ: وكأنَّ وجه النَّظر – والله أعلم – تناقضه مع ما نُقِل أيضًا عن ابن عبّاس – رضي الله عنهما – أنهم كانوا سبعين رجلًا أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء[3]. وفي رواية عطاء عنه أنهم كانوا سبعين ألف رجل[4]. ولأنَّ عبارة الملأ ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾ [الشعراء: 37] تُشعر بأنه يجب أن يكون المطلوب رأسًا في هذا الفنّ؛ لا غلامًا متعلِّمًا، وفرعون باسطٌ نفوذه على القُطر المصريِّ كله، فكيف يعدل عن إحضار أساطين الفنِّ – وهو قادر – إلى إحضار أربعين غلامًا، والمناظرة مصيرية يُهمه ضمان حسمِها.

فالقول بأنهم أربعونَ غلامًا ساحرًا لا تطمئنُّ له النَّفْس، وقد نُسبت لأعيان المفسرين أقوالٌ في عددهم؛ فعن عكرمة وابن جريج أنهم كانوا تسع مائة5، وعن عكرمة والقاسم بن أبي بزة أنهم كانوا سبعين ألفًا6، وعن ابن المنذر ومحمد بن كعب أنهم كانوا ثمانين ألفًا7، وعن كعب قال: كان سحرة

---

[1] البداية والنهاية (2/ 71).

[2] البداية والنهاية (2/ 72).

[3] تفسير ابن أبي حاتم (7/ 2428؛ برقم 13479)

[4] تفسير الطبري، والتفسير البسيط (14/ 457).

[5] تفسير الطبري (16/ 108).

[6] تفسير الطبري (10/ 355، 16/ 107).

[7] تفسير الطبري (10/ 355).

فرعون اثنا عَشَر ألفًا[1]، وعن محمد بن إسحاق ووهب بن منبه: كانوا خمسة عشر ألفًا[2]. وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفًا[3].

وبغضِّ النظر عن تحصيل الدقّة في عددهم؛ فالظاهر أنَّ عددهم كان كبيرًا؛ بحيث يصعب على العقل أن يتصوَّر أنَّهم كانوا ينطقون باللفظة ذاتها؛ مع الأخذ في الاعتبار أنَّهم كانوا من أنحاء القُطر المصريّ كلِّه، والعادة قاضية بأنهم لا يتحدثون لهجةً واحدةً، فأهل مصر في زماننا لا يتحدثون لهجة واحدةً؛ على ما في زماننا من عواملَ تجعل اتفاقهم على لهجة واحدة أمرًا ممكنًا؛ كمركزية اللغة العربية الدينية والثقافية، وكسهولة الاتصال وسلاسته وتوفُّر سبله وتنوعها.

فإذا سلَّمنا بهذا فلنا أن نتساءل: هل كان كلُّ ساحرٍ يمثِّل نفسه فقط، يتحدَّث باسمها، أم كان هناك مُصطفَوْن منهم ينوبون عنهم في ذلك؟

والإجابة لا تخرج عن ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون هناك من يتحدث بلسان السحرة؛ بحيث إنهم وكَّلوا شخصًا هو مَن تفاوض أوَّلًا مع فرعون، كما أُشار إليه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: 113-114]، ثمَّ تفاوض مع موسى؛ كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ﴾ [الأعراف: 115-116]، ثمَّ أعلن لفرعون إيمانَهم بربِّ العالمين بعد اندحارهم أمام موسى.

فإن هذا هو ما حدث فعلًا، فالأقرب أنَّ عدد تلك الفئة المصطفاة للحديث باسمهم قد تناسب مع مجموع عدد السحرة؛ ليكونوا معبرين عن الجميع مع كثرة عددهم واختلاف لهجاتهم وأنحائهم كما ذهبنا، وفي هذه الحال يكون القرآن قد حكى حاصل معنى ما تكلَّمت به هذه الجماعة.

الثاني: أن يكون كلٌّ قد تحدَّث بلسان نفسه، وعبَّر عنها فقط، ويكون القرآن قد حكى جُملة أقوالهم، ولذا أثبت في كلِّ موضعٍ ما ليس في الآخر.

الثالث: وهو ما تميل إليه النفس؛ أنَّ مَن تفاوضوا مع فرعون ثم مع موسى ﷺ فئة قد أُوكلوا لمقابلة فرعون للاتفاق على أجرهم، ثم للاتفاق مع موسى على قواعد المباراة، ثم بعد أن جرت الأحداث بما جرتْ به، ورأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن خرُّوا سُجَّدًا، فجاء سجودهم تلقائيًّا غير مرتَّب له؛ بل استدعاهم إليه ما ظهر لهم من برهان صدق موسى ﷺ، وهذا ظاهر لفظ القرآن. وحينئذ لا

[1] تفسير ابن أبي حاتم (8/ 2762؛ برقم 15616)، وتفسير الطبري (10/ 355).

[2] تفسير الطبري (10/ 354، 16/ 108)، والتفسير البسيط (14/ 457).

[3] تفسير الطبري (16/ 107).

يُعقل أن تكون العبارة الصادرة عنهم حال سجودهم صادرة عن الجميع باللفظ نفسه، وإن كان المعنى المراد واحدًا في الجملة، ولذلك عُبِّر عنها مرتين بقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: 121-122، والشعراء: 47-48]، ومرة بقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: 70].

ولـمَّا كان الاختيار الثالث هو الأقرب إلى العقل والمنطق، فالذي نذهب إليه أنَّ بعض السحرة نطقوا -كلٌّ بلسانه ولهجته- بما حاصلُه تقديمُ موسى على هارون، ونطقت طائفةٌ أخرى -كلٌّ بلسانه ولهجته- بما حاصلُه تقديمُ هارون على موسى. والذين قدَّموا هارون في الذكر هم أولئك الذين نظروا إلى حديث هارون بين يدي موسى، وفصاحته، والأشبهُ أنَّهم الخاصة الذين فاوضوهما، والذين قدَّموا موسى في الذكر هم أولئك الذين رأوا فعل موسى بين أيديهم إذ ألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، وهم جمهور السحرة، ولـمَّا كان ما رأوه أبلغ في التأثير مما سمعوه وأبقى في الذكر منه لتأخره في الحدوث؛ كان عدد مَن قدَّموا موسى ﷺ في الذِّكر أكثر من عدد مَن قدَّموا هارون ﷺ، ولذا تقدَّم ذكر موسى مرتين، وتقدم ذكر هارون مرة واحدة، فتأمَّله! والله أعلم.

ويبقى البحث في وجه اختصاص سورة طه بتقديم ذكر هارون ﷺ على موسى ﷺ.

إنَّ المتدبِّر لسياق السور الثلاث يتَّضح له جليًّا حضور ذكر هارون ﷺ في سورة طه أكثر من حضوره في سورتي الأعراف والشعراء، فناسب أن يتقدَّم في السورة التي كان حضوره فيها أَبينَ، وذكره فيها أكثر. وإليكَ مظاهر حضور هارون -عليه السلام- في السور الثلاث:

1. **ذُكر هارون -عليه السلام- بلفظه في القرآن الكريم عشرين مرة**؛ منها أربع مرات في سورة طه، ومرتين في كلٍّ من سورة الأعراف، وسورة مريم، وسورة الشعراء وسورة الصافات، ومرة واحدة في كل سورة من سور البقرة والنساء والأنعام والأنبياء والمؤمنون والفرقان والقصص. على أن المذكور في البقرة (آل هارون). أي أنَّ ذكره في سورة طه وحدها يساوي ذكره في سورتي الأعراف والشعراء مُجتَمِعَتَيْن.

2. **أكثر مواضع القرآن تفصيلًا في ذِكر استنباء موسى هارون -عليه السلام-** هو المذكور في سورة طه إذ قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: 29-35]. وهذا لم يذكر في الأعراف أصلًا، وذُكِر في الشعراء مختصرًا في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء: 12-13].

3. شخصية النبي هارون ﷺ أكثر ظهورًا في سورة طه، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝٤٢ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: 42-48]، فالخطاب مطَّرد بالتثنية. وهذا غير مذكور في الأعراف، ومذكور باختصار في سورة الشعراء؛ قال تعالى: ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ۝١٥ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾ [الشعراء: 15-17]. ولعل التعبير بالتثنية في طه: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: 47]، وفي الشعراء: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 16]؛ يثبتُ استقلالًا لهارون ﷺ. قال الزمخشريُّ: «فإن قلت: هلا ثَنَّى الرسول كما ثنى في قوله ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾؟ قلتُ: الرسول يكون بمعنى المرسَل، وبمعنى الرسالة، فجُعل ثَمَّ بمعنى المرسَل، فلم يكن بدّ من تثنيته، وجعل هاهنا – يعني في الشعراء – بمعنى الرسالة فجاز التسوية فيه– إذا وصف به– بين الواحد والتثنية والجمع[1].

4. حضور شخصية هارون كخليفة لموسى وقائم بمهامّ النبوة في غيابه أوضحُ وأتمُّ في سورة طه:

وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ۝٩٠ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ۝٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۝٩٣ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ [طه: 90-94].

وهذا الموقف لم يُذكر في الشعراء، وذُكِر في الأعراف؛ غير أنَّه لم يُذكر به نصّ مراجعة هارون – عليه السلام – لبني إسرائيل.

فأنت ترى أنَّ ما يتعلَّق بذكر هارون – عليه السلام – في السور الثلاث أثبتته سورة طه بما لم يرد أصلًا في سورتي الأعراف وطه، أو أثبتته بتفاصيلَ لم ترد في السورتين الكريمتين مع ذكره بهما.

فلذا ناسب اختصاص سورة طه بتقديم ذكر هارون على ذكر موسى. والله تعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

---

[1] تفسير الزمخشري (3/ 304).